المخطوطات المصورة بدير القديسة كاترينا
بسيناء

- ١ -

طبوغرافية العالم

للراهب المصرى كوزما
المشهور بالبحار الهندى

للأستاذ الدكتور
سامى شنوده
الأستاذ المساعد بقسم الآثار

تضم مكتبة دير القديسة كاترينا بشبه جزيرة سيناء نيفا وثلاثمائه وثلاثة آلاف من المخطوطات اليونانية والعربية والسريانية والجيزانية والأرمنية والحبشية والقبطية والفارسية والروسية واللاتينية ، منها الدينى ومنها الأدبى والتاريخى(١) . وبين هذه المخطوطات عدد غير قليل وضحت نصوصه بصور أوبرسومات تخطيطية(٢) لاتقل أهميتها عن النص نفسه لأنها تمثل الفن فى فترات وعصور متعاقبة تمتد من القرن السادس إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد كما أنها تمثل المدارس الفنية المتباينة فى الاسكندرية وبيزنطة وانطاكية بالإضافة إلى مدارس العصر الإسلامى وأشهرها مدارس سوريا والعراق ومصر .

وفى هذا البحث نتناول بالنقد والتحليل منتخبات من سبع وخمسين صورة(٣) وردت فى النسخة الخطية (سيناء - يونانى — ١١٨٦) لكتاب الطبوغرافيا المسيحية لمؤلفه الراهب المصرى كوزما المعروف وبالبحار الهندى»(٤) .

يضم هذا المجلد مائتين وأحد عشر رقاً يبلغ طول كل منها ٢٥,٢ سنتيمتراً وعرضه ١٨,٨ سنتيمتراً وتحتوى كل صفحة على عمود واحد للكتابة . وقد ترك الناسخ فى الصفحات فراغات لم يصب دائماً فى تقدير مساحتها ، ملأت فيما بعد تارة بالرسومات التخطيطية التى تأتى فى ذيل النص الموضحة له مباشرة ، وتارة أخرى بالصور المنسقة التى تأتى غالباً فى أسفل الصفحة التى ورد فيها النص المتعلق بها .

---

(١) نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها (١٩١٦) ص ٢١٨ .

(٢) Kenneth W. Clark, *Checklist of Manuscripts*, 1952, p. *VII*

(٣) نفس المرجع السابق p. 22

(٤) *Τοπογραφια Χριστιανικη, Κοσμα Αἰγυπτιου μοναχου, Ινδικοπλευστος.*

ورود الصور بهذه الطريقة يجعلنا نرى أن الناسخ كان شخصاً آخر غير الرسام برغم أن مثل هذا التخصص كان نادراً فى ذلك الوقت المبكر لصناعة الكتب ، وكان الشائع حينذاك أن يتولى الناسخ نفسه مهمة التصوير والرسم وكذلك التجليد ، ويؤكد وجهة نظرنا هذه ما نراه من اختلاف واضح بين خط النص والخط الموضحة به الصور ، ومن جهة أخرى فان وضع معظم الصور ، وخاصة تلك التى تسجل أحداثاً بعينها ، داخل اطارات متشابهة فى زخرفتها والوانها التى استخدمت أيضاً فى توضيح الصور مثل البنى للأرض ، والجبال ، والأزرق للسماء ، والأسود للسحب ، والذهبى للكواكب والنجوم ، يبعض دليلا على أن رساماً واحداً هو الذى قام بتصوير المخطوط بأكمله .

وعلى ضوء ماذكرنا ، وبمقارنة أسلوب الخط وصور مخطوطنا بنظائرها فى نسخة خطية أخرى محفوظة بالفاتيكان تحت رقم(يونانى ٦٩٩)(١) ومؤرخة فى القرن التاسع الميلادى ، يمكن القول بأن مخطوطنا يأتى فى ترتيب النقل فى وقت لاحق لمخطوط الفاتيكان ، هذا إذا حكمنا على أقدمية المخطوطات بمدى جودتها واتقانها ، أما إذا اعتبرنا تعدد الأحداث المسجلة بالصور ، فان مخطوطنا — إن لم يسبق نسخة الفاتيكان — يكون على الأقل من نفس القرن التاسع . ومن ثم فنحن بازاء نسخة من أقدم النسخ الخطية التى وصلت الينا للكتاب الذى ألفه كوزما فى منتصف القرن السادس الميلادى .

يميل العلماء مسترشدين بالمؤرخ الروسى اينالوف فى دراسته عن الأصول الهلينستية فى الفن البيزنطى(٢)، إلى إتخاذ صور كوزما الواردة فى «الطبوغرافيا

---

(١) C. Sternajels, *Miniatures della Topogrephia christiana di Cosma* Indicopleste, Cedico Vaticano greco 699. (Millan, 1908).

(٢) تلخيص للكتاب الروسى .

C. Wulff; Raport of *Kunstwissenschaft*, xxv1, 1903. *cf;* M.V. Anastas, "The Alexandrian Origin of the Christian Topography of Cosmas Indicopleustes, *Dombarton Oaks Papers*, III, 1946, pp.75—80; O.T. Rice, *Byzantine Art* (Pelican, A 287) pp.21, 134.

المسيحية» أساساً للدراسة فن الإسكندرية فى تنميق الكتب إذ اعتقدوا ، كأمر طبيعى أنها صورت كلها فى نفس الوقت ونفس المكان الذى كتب فيه كوزما . لكننا لا نستطيع أن نسلم بوجهة نظرهم هذه ، ولابد من أن أن نقوم هنا بتحليل بعض صور المخطوط لنتبين مدى الارتباط بينها وبين النص الذى ترضحه ، وبقدر هذا الارتباط تتحدد لنا أصالة الصور ، فهل قام الفنان بعملها خصيصاً لتوضيح موضوعات «الطبوغرافيا المسيحية» أم أنه استعارها كلها أو بعضها — من أصول أخرى لنصوص أقدم زمنا (١) خاصة ونحن نلاحظ أن صور مخطوطنا تناولت العديد من الموضوعات المتباينة فمنها الأثرى والتاريخى ومنها الجغرافى والفلكى والطبيعى ومنها، وهى الغالبية، الأسطورى الدينى .

يتناول المؤلف على مدى مقدمة واثنى عشرة مقالة مشقة البرهنة على أن الأرض مسطح ، منبسط متاخماً بذلك ما توصل اليه علماء العصر الهلينى من كرويتها (٢) وذلك اتجاه يدل على مدى التدهور الذى أصاب علوم العصر الهلينى أبان العصر البيزنطى ومع ذلك فهى فكرة على أية حال لا تخلو من طرافة وقد ظفرت بشعبية هائلة طيلة قرون عدة نظراً لما حيك حولها من براهين استمدها كوزما ، كما يذكر فى مقدمته (٣) من أحداث الكتب المقدسة «التى حرم على المسيحين الشك فيها» ومن أقوال الانبياء والحكماء وذلك بالإضافة إلى اختباراته الشخصية فى الفترة التى سبقت اتخاذه الرهبنه ملاذاً له من الحياة ومتاعبها فهو يخبرنا بأنه بدأ حياته كوكيل أعمال لأحد تجار الإسكندرية الكبار فى عصر جستنيان وشغل نفسه بالأسفار

---

(١) K. Weitzmann,, *Roll and Codex*: Princeton, 1948 pp.112. *et passim.*

(٢) أنظر / ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ١٩٦٦ ، الجزء الرابع من ٢٣٢ ومابعدها .

(٣) *Προλογος Α', Προλογος Β'*

Χριστιανική τοπογραφία περιεχτική παντὸς του κοσμου αποδείξεις ἐχουσα ἐκ τῆς θειάς Γραφῆς, περὶ ἡς ἀμφισθητεῖν χριστιανοὺς οὐ δεόν.

فجاب «الخلجان الثلاثة» كما يسمى هو نفسه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي (١) . ولا شك أنه قام خلال أسفاره بتسجيل كل مشاهداته حتى أصبح لديه سجل جغرافي وتاريخي حافل . فهو يصف بدقة واضحة حالة البلاد التي مارس التجارة فيها ، وحياة شعوبها وأساليب معاملاتهم التجارية ويأتي بكثير من المعلومات الطريفة التي تساعد على تأييد نظريته (٢) .

وأبرز مثل على ذلك وصفه لبلاد الحبشة وتلك الصورة الفريدة التي أوردها لأثر من آثار العصر الهلينستي لا نعرف عنه سوى ما ذكره كوزما في مقدمة كتابه «الطوبوغرافيا المسيحية» (شكل ١) . فبالقرب من مدينة أدوليس Πολις Ἀδουλης (سواكن الحالية) التي مثلت ببوابة على يسار الناظر ، رسم الفنان كرسيا للعرش البطلمي Πολις Ἀδουλης θρονος Πτολεμαικος نقشت على جانبيه صورتان لشخصين تلامح وخصائص ملوك البطالمة (٣) فكلاهما يرتدي الملابس الملكية وعلى رأس كل منهما تاج يشبه تيجان الشمس المشخصة (شكل ١٣) إلى جانب الكرسي أقيمت قاعدة يعلوها تمثال لرجل بالملابس العسكرية وقد أمسك بيمناه رمحاً أو مدراة ؛ بينما أمسك درعاً بيده اليسرى وقد نقشت على القاعدة عبارة «الملك العظيم بطلميوس» Βασιλ... μεγας Πτολεμαιος وفي أعلى الصورة نجد ثلاثة من الجنود الأحباش الراجلين . Αιθιοπες πεζευοντες وكأنهم في الطريق إلى مملكة اكسيوم Π Ἀξωμη التي مثلت بمدينة محصنة على يمين الناظر

ويتضح لنا من النص الوارد في مقدمة الكتاب أن المقصود بالملك العظيم بطلميوس هو بطلميوس الخير ، Ευεργετες ثالث ملوك البطالمة (٢٤٧ – ٢٢٢ ق . م) الذي انتهز فرصة السلم الذي عقده أواخر أيامه مع جيرانه

---

(١) *Cf.* Morey, C.R, *Early Christian Art*, Princeton, 1953, pp. 79 ff.

(٢) Runcimann, *Byzantine Civilisation*, 1959, p. 165 *et passim.*

(٣) بطلميوس الثالث أول من وضع على رأسه تاجا على شكل الشمس المشعة – انظر Gabriel Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*, Tome III, p. 56.

فى الشمال ليوجه ضرباته إلى القبائل الاثيوبية على حدود مصر الجنوبية ، وقد تم له اخضاعهم لسيطرته ثم تقدم حتى وصل إلى مدينة أدوليس على البحر الأحمر ، وهناك أقام تمثالا للاله مارس «إله الحرب — تعبيراً عن شكره على ما حباه الاله من نعمة النصر ، كما أقام تذكارا على شكل كرسى للعرش من الرخام الأبيض على جانبيه صورتان لهرقل وهيرميس وعلى جوانبه الأخرى نقشت كتابات باليونانية أوردها كوزما فى نصه على أنها من أعمال بطلميوس الخير » (١)

هذه اشارة تاريخية أثرية عابرة أوردها كوزما ، دون سواه ، ليثبت قيامه برحلات إلى أماكن نائية من العالم ، أكدت له أن الأرض مسطحة وليست كروية أو مستديرة . ولا يسعنا نحن الا أن نقرر أن كوزما قد أثبت ما رآه بعينه ولم يعتمد على الرواية أو النقل كما لا يسعنا أيضاً الا الاعتقاد بأن الكتاب الذى خطه كوزما بنفسه كان يحتوى على مثل صورتنا هذه التى لا شك قد رسمت لتوضيح النص .

ولكن النزعة الدينية لا تلبث أن تتغلب على كوزما ، بوصفه راهباً ، فهو يرجع إلى التوراه وإلى سفر دانيال بالذات (دانيال ٧ : ١ وما بعدها) ليفسر لنا سيطرة البطالمة (٢) والمقدونيين على أنها تحقيق للرؤيا التى يرويها دانيال حين خرجت من البحر أربعة حيوانات عظيمة ، الأول كالأسد والثانى كالدب والثالث كالنمر ويعد هذا يأتى الحيوان الرابع «هائل وقوى وشديد جداً وله أسنان من الحديد وله عشرة قرون ، أكل وسحق وداس الباقى بأرجله » .

---

(١) يذكر Salt أن النقش كما أورده كوزما هو جمع بين نصين أحدهما لبطلميوس الخير والآخر لملك أخر من ملوك الاحباش .

Salt, *Travels in Abyssinia*, 1814, p. 453.

انظر أيضا :

Smith *Dic. Gr. & Rom. Bibliography of Mythology*, III, p. 583.

وأيضا :

Gabriel Hanotaux, *Histoire de la Nation Egyptienne*, Tome III, p; 56.

(٢) Fol. 30v. *Παραχραφη εἰς τὸν πτολεμαιον.*

وتوضيحاً لهذا لجأ الرسام إلى تسجيل تلك الرؤيا فى صورة (شكل ٢، ٣) تمثل ملاك الرب جالسا فى جب الأسود (مع دانيال) بينما يتواعد أمامه ملوك الأرض الأربعة ممتطين صهوة أربعة حيوانات مجنحة الأول على شكل أسد وهو ملك بابل والثانى على شكل دب وهو لملك الميديين والثالث رأسه رأس نمر وعليه ملك الفرس وأخيراً لحيوان يحمل على رأسه قروناً وممتطيه ملك وصف «بالمقدونى» .

ويفتتح كوزما كتابه الثانى(١) بسرد «النظرية الخاصة بشكل وحالة العالم بأكمله كما وردت فى الكتب المقدسة» وهو ما تمثله الصورتان (رقم ٤ ، رقم ٥) بكل ما فيها من بساطة وايجاز ، : فالأرض المسكونة أو المعمورة *ἡ οἰκουμένη* عبارة عن مستطيل طوله من الشرق إلى الغرب أكثر من ضعف عرضه من الشمال إلى الجنوب وتظهر الشمس فى الجانب الأيمن حيث الشروق *ἀνατολή* بينما تبدو كأنها نصف مختفية فى الجانب الغربى *δύσις* من المعمورة .

ولكن سرعان ما يجد كوزما أن المشكلة ليست بهذه السهولة فيعاود الرد على معارضيه ويلجأ إلى سفر التكوين وإلى ما تصوره علماء التسطوريين فى سوريا من شكل الكون ليثبت أن الأرض حقاً مسطحة وان الكون أشبه شىء بصندوق يرتكز على الأرض (شكل ٦) ، الجزء العلوى منه يتخذ شكل نصف أسطوانة سطحها العلوى المحدب تمثل السماوات التى يتوسطها صورة تمثل روح الله يرفرف على وجه الماء (سفر التكوين ١ : ٢) بينما يفصل الجلّد *στερεωμα* بين السماوات وبين الجزء الأسفل من الصندوق والمياه المحيطة (*ὠκεανος*) بالأرض . أما شروق الشمس *ἡλιος ἀνατελλω*

---

(١) *Λογος Β' : Ὑποθεσεως χριστιανικαι περὶ σχηματῶν καὶ τοποθεσιας παντος τοῦ κοσμοῦ ἐκ τῆς θειας Γραφῆς τὰς ἀποδειξεις ἐχεαιι.*

لمراجعة نص مخطوطنا على النصوص الواردة فى نسخ أخرى يمكن الرجوع الى
Migne, *Patrologia Graeca*, LXXX 111;

للترجمة الانجليزية انظر
J. W. Mc Crindle, *The Christian Topography of Cosmas*, London, 1897.

وغروبها ἥλιος δυνων فيفسرهما كوزما بوجود هذا الجبل المخروطى الشكل والذى تدور حوله الشمس مرة كل يوم (١) .

لقد اعتمد كوزما فى تصوره للكون على ما جاء فى التوراة (سفر الخروج) من تعليمات الرب لنبيه موسى عن تابوت العهد (شكل ٧) وخيمة الاجتماع (شكل ٨) حتى لقد أفرد فصلا خاصاً — هو الكتاب الخامس (٢) — أورد فيه بالإضافة إلى ما سبق رسومات تخطيطية للاحجبة والستائر وكذلك للأدوات الذهبية وغيرها مما أوصى بصنعها (شكل ٩) ويهمنا فى هذا المجال واجهة تابوت العهد (شكل ٨) ذات السطح المحدب مثلها مثل (شكل ١٠) الذى أورده كوزما لتوضيح نظريته .

يتضمن هذا الكتاب الخامس فصلا آخر عن اجماع الأنبياء والرسل واتفاقهم على أهمية شكل الكون كما تصوره كوزما — وأهم ما اعتمد عليه كوزما فى هذا الصدد قيام نوح ، بارشاد وتوجيه من الله ، ببناء فلك لينجوبه من الطوفان (سفر التكوين : ٦) فلقد أمر الله ببناء فلك (شكل ١١) من خشب «تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار » وكلفه الرب بأن يصنع كوة وهى التى مثلت فى صورتنا وكأن نوح يتطلع من خلالها ليستقبل الحمامة وفى فمها غصن الزيتون . كذلك أمر الله نوحاً بأن يجعل من الفلك مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية وهو ما يتفق تماماً وتصور متطور للعالم سجله كوزما فى شكل (١٢) .

وبعد فلا مجال للشك فى أن مثل هذه الرسومات التخطيطية قد صاحبت المخطوط منذ كتبه كوزما إذ أنه من العسير أن نتصور أن هذه النظريات شأنها شأن الرياضيات وأعمال المساحة كانت تسجل كتابة دون مصاحبة

---

(١) راجع :

Morey, C. R, *Early Christian Art*, (Princeton, 1953, pp. 79 ff.

(٢) *Λογος Ε', ἐν ᾧ ἐστι τῆα σχηνης ἡ διαχραφη καὶ τῶν προφητῶν καὶ ἀποστολῶν ἡ συμφωνια.*

الرسم التخطيطى لها . ومثل هذه الرسومات كان معروفاً فى الإسكندرية إذ تمتلك المكتبة الأهلية بمدينة فينا ملفاً بردياً يبلغ طوله مترين ونصف المتر من القرن الأول ق.م رسمت فيه أشكال تخطيطية دون استخدام المسطرة(١).

كان من الطبيعى ، وكوزما يتحدث عن شكل الكون أن يتناول الشمس وعظمتها وقد خصها بمقالتين(٢) لم يأت فيهما بجديد بل نقل ما سبق أن دعا اليه علماء الإسكندرية مثل هيبارخوس وبطليموس الجغرافى مناهضين فكرة اريستارخوس التى تقول أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس ، لأن الظواهر المرئية لا تؤيد ذلك (٣) ومن أمثلته المصورة على عظمة الشمس ظهورها فى وقت واحد فى أماكن متباعدة وقد مثل ذلك فى صورة تخطيطية (شكل ١٣) تمثل الشمس وكأنها عملة ذهبية تتوسطها صورة لملكة متوجة بتاج كالشمس المشعة وهى ترسل باشعتها لتضىء اكسيوم والحبشة ومروى وأسوان والإسكندرية وروما وبلاد اليونان فى وقت واحد

وفى معرض حديثه عن كسوف الشمس لا ينسى كوزما الكتب المقدسة فيورد قصة الملك حزقيا عندما دعا الله أن يؤجل ميتته ليعيش فترة أخرى واضاف الله إلى حياته خمس عشرة سنة (سفر أشعياء ٣٨) وكانت علامة هذا أن «رجعت الشمس عشر درجات فى الدرجات التى نزلتها» وتمثل الصورة المرافقة للنص (شكل ١٤) الشمس على هيئة ملكة متوجة ، كما فى الصورة السابقة متراجعة عشر درجات إلى الوراء فتحجب أشعتها عن الأرض التى مثلت مستديرة مناهضة بذلك ما يدعو اليه كوزما .

---

(١) Pap. Vindeb. gr. 19996; K. Weitzmann, *Ancient Book Illumination*, p. 5, fig. 1.

(٢) المقالتان السادسة والسابعة من كتاب كوزما

Λογος Ϛ' : συνημμενάς περί μεγεθους ἡλιου .

Λογος Ζ' : εἰς τὴν ὠδὴν Ἐζεκιου, καὶ εἰς τον ἀνω ποδισμου του ἡλιου.

ملحق حول عظمة الشمس

فى صلوات حزقيا وتراجع الشمس

(٣) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر القديمة الجزء الرابع ١٩٦٦ ص ٢٢٨

لا شك وقد لاحظنا الدقة الرياضية التي رسمت بها هاتان الصورتان مما تقصر دونه كفاءة كوزما العلمية – أن مثل هذه الصور قد نقلت عن مؤلفين آخرين سبقوا كوزما ، أولعلها أضيفت إلى الكتاب في نسخة لاحقة خصوصاً ونحن نعرف أن المقالات والأبحاث الفلكية كانت توضح بالصور منذ عصر مبكر. ومن أقدم الأمثلة على ذلك ملف بردى (١) من القرن الثاني ق . م يحتوى على تعليمات مدرسية خاصة بكسوف الشمس وخسوف القمر والكواكب ومسح لحركة السماء المليئة بالنجوم كما ذكرها يودوكسوس (٢) في القرن الرابع قبل الميلاد . ولقد ملئت معظم أعمدة الملف وهي ثلاثة وعشرين عموداً – برسومات للأبراج والكواكب من بينها رسم بسيط للكون مقسما إلى نصفي كرة واثني عشر جزءاً تمثل الأبراج . كذلك رسم الكوكب الصياد وقد صور بشكله المصري الذي يمثله أوزيريس وقد مثلت الشمس بالجعران المصري ، وفي هذا ما يؤيد وجود التأثير المصري على مثل هذه الأبحاث العلمية (٣) .

وقد خصص كوزما معتمداً على مثل المصادر السابقة كتابين آخرين لتفصيل مجالات السماء وتحركات النجوم والأبراج (٤) وضحت بثلاث صور تمثل أولاها علامات الأبراج (شكل ١٥) بينما تمثل الثانية الأرض والشمس وأشهر السنة (شكل ١٦) أما الثالثة فانها تمثل الفصول والأبراج (شكل ١٧) .

من أهم الموضوعات التي وردت في مخطوطنا هو ما تناوله كوزما في مقاله الحادية عشرة» (٥) عن حيوانات الهند وجزيرة تابروبان أو سيلان

---

(١) Paris, Louvre, Pap. no. 1; Weitzmann, *Roll and Codex*, fig. 37.

(٢) انظر ابراهيم نصحي المرجع السابق ص ٢٣٦

(٣) K. Weitzmann, *Ancient Book Illumination*, P 6.

(٤) حول مجالات السماء *Λογος Ζ' : περι διαμονης οὐρανων.*

حول مجالات النجوم *Λογος Θ' : περι δρόμου ἀστρων.*

(٥) *Λογος Ι'Α' : καταγραφη περι ο ζωων Ινδικων, και περι της Ταπροβαντης νησου.*

متضمناً معلومات غاية فى الأهمية من الناحية الاقتصادية والدينية وأحوال المعيشة لسكان تلك البلاد. هذا الفصل من الكتاب لم يخصه من الصور السبع والخمسين غير خمس صور مثلت فيها مجموعة قليلة من الطيور كالطاووس والحيوانات البرية مثل الأسد والثعلب والوعل والضبع والغزال والحصان وحيوانات البحر مثل فرس النهر وكلب البحر والدرفيل والترسة ومن الأشجار شجرة الفلفل وأشجار النخيل الهندى وغيرها .

مثل هذه الصور لا شك أنها هى لأخرى دخيلة على المخطوط وقد استعيرت من كتب أخرى أكثر تخصصاً وذلك بغية تنميق كتاب كوزما وتجميله بالصور . مثل هذه الكتب التى تتناول موضوعات الحيوان والنبات والأعشاب الطبية وأعمال الأرض والصيد البرى والبحرى كانت كلها واسعة الانتشار فى العالم القديم ولا سيما فى الكتب المعروفة بكتب الطب والتى تتناول العقاقير النباتية والحيوانية مثل كتاب ديوسقوريديس من القرن الأول الميلادى (١) . ومن السهل العثور على مثل هذه الصور التقليدية التى وردت فى مخطوطنا فى مخطوطات أخرى مما فى ذلك صورة الغزالة التى تحك قرنها بحافرها (شكل ١٨) وصورة الصياد (٢) الذى يصوب سهمه ليصطاد ثعلباً μιαχος (شكل ١٩) وكذلك ذلك المنظر الواقعى الذى يمثل أسداً يلتهم حصاناً (شكل ٢٠) وصورة الراعى الذى يقف بالسكين أمام النخلة (شكل ٢١ ، ٢٢) .

ويتناول كوزما فى كتابه العاشر الحديث عن الأماكن المقدسة أو أماكن الآباء ، كما يسميها هو (٣) وهو يقصد تلك الأماكن التى تجلى الله فيها للأنبياء والرسل وكان من الطبيعى أن يبدأ بجنة عدن والصورة

---

(١) Dioscurides : *περὶ ὕλης ἰατρικῆς.*
راجع K. Weitzmann, *Ancient Book Illumination*, pp. 11 ff
(٢) أنظر
Kurt Weitzmann, *Greeck Mythology in Byzantine Art*, figs. 128, 131
(٣) *Λογος Γ' : χρησεις πατέρων.*

التى اختارها الفنان لتوضيح هذا المكان استمدت موضوعها من سفر التكوين (الأصحاح ٢ : ٨ وما بعدها) حيث يذكر «وغرس الرب الاله جنة فى عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذى جبله وانبت من الأرض كل شجرة شهية وجيدة للأكل وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر ..» وفى صورتنا رقم (٢٣) نرى آدم وحواء عاريين مختبئين وراء شجرة تتوسط بعض الشجيرات بينما الحية ملتفة حول الشجرة حتى تقترب من اذن حواء كما لو كانت تهم باغرائها ، وهذه الصورة ليست أصيلة فى مكانها هذا ، ولا شك أنها مستعارة من كتاب خاص بالحيوانات الطبية ومنها الثعبان على نحو ما نجد مثلا فى كتاب لديوسقوريديس (١) .

عرف آدم حواء أمراته فحملت منه ، وولدت قابيل ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعياً للغنم (سفر التكوين : ٤) وتوضيحاً لهذا المكان أورد الفنان صورة رقم (٢٤) تمثل هابيل واقفاً وقفة الرعاة التقليدية مرتكزاً على عصاه ومستريحاً على قدمه اليسرى وأمامه الماعز والأغنام متحركة غير جامدة وكذلك لم ينس الفنان تسجيل كلب الراعى وهو الآخر من المناظر التقليدية المألوفة منذ العصر الهلينى (٢) .

على أن أهم الأماكن فى هذا الصدد والتى نالت أكبر قسط من العناية من حيث عدد الصور كانت بطبيعة الحال سيناء وجبل الرب حوريب حيث توالت عدة أحداث تجلى الله فيها لموسى وهو فى طريق هروبه من مصر على رأس بنى اسرائيل(٣) . أول هذه الأحداث هو ماجاء فى سفر الخروج (٣ : ١ وما بعدها) حيث يروى أن «موسى بينما كان يرعى غنم حميه يثرون

---

(١) Cologne, Dombible cod. 83 II Fol. 156 v; *see* Weitzmann, *op. cit*, fig. 30.

(٢) أنظر
Kurt Weitzmann, *Greeck Mythology in Byzantine Art*, *figs*, 132,133

(٣) لتحقيق الاماكن الواردة فى التوراة أنظر : أ . موسل ، شمال الحجاز ترجمة د . عبد المحسن الحسينى ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ ص ١٠١ .

كاهن مدين ، ساقها ذات مرة فيما وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار وسط عليقة فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة فلما رأى الرب أنه مال ينظره ، ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى لا تقترب إلى هنا اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة» ولأول وهلة يخيل إلى الناظر أن الصورة رقم (٢٥) تمثل عدة فصول من القصة السابقة فهنا نرى موسى فى لباس الرعاة ، ولكن تعلوه هالة الأنبياء ، وفى يده العصا يرعى الأغنام من حوله ، والكلب رابض يحرسها» وفى أعلى الصورة مثلث السماء ويد الله ممتدة منها مشيرة إلى موسى وفى وسط الصورة رسم الحذاءان . ومرة أخرى نجد موسى كما لو كان يصعد الجبل ليتسلم الوصايا من يد الله الممتدة من قوس السماء ومن تحتها العليقة المحترقة .

لا شك أن الصورة بهذا الشكل تجمع بين قصتين الأولى هى بداية لرحلة خروج بنى اسرائيل من مصر والثانية تكاد تأتى فى نهاية الرحلة ومن ثم فان صورتنا لا تشير إلى جزء محدد من نص التوراة وبالتالى من نص كوزما خاصة وأن لدينا أربع صور أخرى تصور كل منها مجموعة من الأحداث الواردة فى قصة خروج بنى اسرائيل من مصر (١) . ففى الصورة الأولى شكل (رقم ٢٦) تسجيل لنهاية الرحلة من رعمسيس إلى سكوت وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب Νεφελη ليهديهم إلى الطريق وليلا فى عمود نار στύλοσπορος ليضيء لهم ومن ثم يواصلون السير ليلا ونهاراً .. ولما اقترب فرعون ومد موسى يده على البحر بعصاه فهبت ريح شرقية جعلت الماء يابسة وانشق الماء ... ثم ارتحلوا من ايليم (شكل رقم ٢٧) حيث تجدها ممثلة بأسوار مدينة ذات ابراج واتوا إلى برية سين التى بين ايليم وسيناء وتذمر بنو اسرائيل على موسى قائلين ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع.. »

---

(١) سفر الخروج الاصحاح ١٢ ومابعدها .

فكان فى المساء أن السلوى (شكل ٢٧) صعدت وغطت المحلة وفى الصباح (شكل رقم٢٨) نرى الشمس *H'λios* مشخصة وإذا على وجه البرية شيء مثل قشور دقيق كالجليد على ارض دعا بنو اسرائيل اسمه منا . وقال موسى لهارون خذ قسطاً (شكل ٢٨) واحداً واجعل فيه منا وضعه أمام الرب للحفظ ثم ارتحل كل جماعة بنى اسرائيل من برية سين و نزلوا فى رفيديم (شكل ٢٨) ممثلة ببوابة معبد (*Paidou*) ولم يكن ماء ليشرب الشعب وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا (شكل ٢٧) بالعطش . فقال الرب لموسى مُرقدام الشعب وخذ معك من شيوخ اسرائيل وعصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك وأذهب ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب — لهذا نعتقد أن صورتنا (شكل ٢٥) منقولة عن صورة مجمعة أو ايقونة صنعت خصيصاً لا لتصوير أحداث الثوراء مفردة وانما لتجميل كتاب من كتب القراءات الخاصة بالاعياد الكنسية . وليس أدل على هذا من تكرار تسجيل الأحداث فنحن نلاحظ أن الفنان قام مرة أخرى (شكل ٢٩) بتسجيل صورة لموسى وهو يتسلم الألواح ولا شك أنها منقولة من مصدر آخر غير المصدر الذى نقل عنه صورتنا (شكل ٢٥) .

يواصل كوزما — وقد بدأ بكيفية خلق الله للعالم الاستشهاد بأقوال الآباء من آدم إلى بولص للتدليل على نظريته . وكثيراً ما اقتصرت الإشارة على مجرد ذكر الاسم يصاحبه صورة مجردة للشخص المعنى كما فى صورة لآدم وحواء (شكل ٣٠) وهما على الأرض بعد طردهما من الجنة ، وصورة لاسحق (شكل ٣١) بعد أن كبر ولبس مسوح الكهنة . ولكن فى معظم الحالات الأخرى نجد أن الصور المرافقة تتضمن عناصر وموضوعات واحداث لاذكر لها فى نص كوزما ولا سبيل إلى الاعتقاد بأنها قد رسمت خصيصاً لتوضيح النص الأصلى الذى اختصره واستشهد به كوزما .

لتوضيح هذا الرأى نأخذ مثلا الفصل الخاص بابراهيم حيث الحق الفنان صورة كبيرة (شكل ٣٢) مثل فيها عدة أحداث من قصة ابراهيم

وأسحق فنرى خادمين سائرين مع الحمار ونرى اسحق حاملا الحطب على كتفيه ثم نرى ابراهيم ، ذلك الشيخ يهم بذبح ابنه اسحق (١) وكذلك نرى يد الله ممثلة من قوس السماء يخرج منها شعاع بمثابة الصوت الصادر إلى ابراهيم بالامس الصبي بسوء أخيراً نرى الكبش الذى سوف يفدى به ابراهيم مربوطاً إلى الشجرة — خمسة أحداث فى صورة تذكارية واحدة جمعت ، بدون شك من صور مفردة منفصلة كانت تمثل الأصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين وبه كل التفصيلات بينما أختصرت القصة فى كتاب كوزما على النحو الآتى «والآن تلك الرحلة التى قام بها ابراهيم لمدة ثلاثة أيام حتى وصل إلى المكان الذى أراه الله اياه حتى يقدم أبنه كمحرقة على أحد الجبال كما هو مكتوب ، وكيف انه أراه كبشاً يمكن أن يقدمه محرقة بدلا من ابنه الذى ولد له من صلبه» (٢) وهكذا نرى النص لا يتحدث عن تابعى ابراهيم اللذين يقودان الحمار ، ومع ذلك تتضمنهما الصورة .

ومن مشاهد العهد الجديد يخصص كوزما فصلا لبولص (٣) لا لشىء الا ليبرهن على أنه هو مؤلف الرسائل الواردة فى الإنجيل وبالرغم من هذا فان المصور يسجل صورة (شكل ٣٣) تروى لنا قصة إعتناق بولص المسيحية (أعمال الرسل ١١٩ وما بعدها) حيث نشاهد ستة أحداث من هذه القصة تكرر فيها ظهور بولص خمس مرات : نراه فى أورشليم ، وقد مثلت يسار الناظر بينما دمشق فى الناحية الأخرى ، يتقدم بولص إلى رئيس الكهنة ليتسلم الخطابات الخاصة بقتل المسيحين ونراه أيضاً فى الطريق وبصحبته اثنان من أتباعه عندما سمع صوت الله ، ثم نراه جاثياً على الأرض ونراه مرة أخرى فى دمشق يتلمس طريقه ، إذ كان قد ضرب بالعمى ، بمصاحبة

---

(١) من المعروف كما جاء فى القرآن الكريم ان الامر جاء فى المنام لابراهيم بذبح أبنه اسماعيل

(٢) Migne, P.G. 88, col. 240; Weitzmann; *Roll and Codex*, p. 141, Fig. 129.

(٣) Migne, *P.G.* 88 col 301 English translation, Mc. Crindle, *op. cit* p. 228; K. Weitzmann, *Roll and Codex*, p. 142; Fig. 130.

حنانيا ، أحد الرسل ، وأخيراً وفى مواجهة الناظر نجده وقد لبس على رأسه هالة المؤمنين ، وكل ذلك بعيد تماماً عما يرويه النص .

وهكذا نرى أن الفنان الذى كلف بتنميق المخطوط لم يعتمد تماماً على النص المختصر بل اعتمد على نص آخر أكثر تفصيلا لتوضيح كل أحداث القصة ولا سبيل إلى الشك فى أن هذا النص هو ما جاء فى سفر «أعمال الرسل» الواردة فى الأنجيل والذى يروى بدقة بالغة (الاصحاح التاسع) كل التفاصيل والأحداث الواردة فى صورتنا — فاذا علمنا أن هذه الصورة فريدة فى نوعها وإذا علمنا أيضاً أنه لم يصلنا أية مخطوطات مصورة «لأعمال الرسل» فتبقى هذه الصورة وأمثالها فى مخطوط كوزما هى الشاهد الوحيد على سبق تصوير كتاب أعمال الرسل وعلى وجود مخطوط مصور لأعمال الرسل نقل عنه الفنان الذى قام بتنميق مخطوطنا . ولذلك فنحن نعتبر صورتنا هذه بمثابة تعليق على النصوص التى ترد فى حواشى الكتب (Scholia) وتمدنا فى كثير من الأحيان بمعلومات عن مؤلفين فقدت أعمالهم .

ومن هذا القبيل أيضاً الصورة التى وردت فى مخطوطنا (شكل ٣٤) عن انتقال النبى ايليا إلى العالم الآخر ، وكان كوزما قد استشهد بهذا الحادث على وجود طابقين للكون طابق علوى هو السماوات وطابق سفلى هو الأرض يضاف اليها عدة أحداث لم ترد الا فى سفر الملوك الأول (الاصحاح ١٧) مثل جلوس ايليا عند نهر كريت حيث «كانت الغربان تأتى اليه بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساء وكان يشرب من النهر» (العدد٦) وفى ذلك دليل كاف على أن رسام مخطوط كوزما كانت لديه نسخة مصورة لسفر الملوك الأول جمع منه صورته .

كذلك لا علم لنا بمخطوطات مصورة لسفر الأنبياء ولكن لدينا فى مخطوط كوزما صورة (شكل ٣٥) تحكى قصة النبى يونان أو يونس وفيها ترى مركبا من الطراز السكندرى الكلاسيكى يمخر عباب البحر الهائج والملاحين فى رعب شديد ثم نرى يونس يخرج من فم الحوت ثم نراه أخيراً ملقى على الشاطىء عارياً مستظلا بفرع شجرة .

يتضح لنا مما سبق اننا بازاء عمل من أعمال القرن السادس الميلادى يدعو فيه الراهب المصرى كوزما إلى نظرية علمية استنفد فى التدليل على صحتها كل ما توصل اليه عن طريق القراءة والدين والتجارب الشخصية مما لا يدع مجالا للشك فى قدر علمه وثقافته تبعاً لمعايير عصره . ومع هذا فنحن نرى أن القيمة الأثرية للمخطوط ترجع فى الدرجة الأولى إلى ما يحتويه من رسومات تخطيطية وصور تباينت موضوعاتها بقدر تباين موضوعات النص . ولقد لاحظنا من تحليل الصور أنها فيما عدا الرسوم التخطيطية الخاصة بشكل الكون وهو جوهر موضوع الكتاب تحتوى على تفاصيل لم ترد فى نص كتاب كوزما مما دعانا إلى البحث عن المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها الفنان فى تجميع صوره . هذه المصادر كانت مؤلفات فى علوم الجغرافيا والفلك والطب والحيوان والنبات والتاريخ بالإضافة إلى التوراة والإنجيل وأنى أرجح أنها كلها كانت منمقة بالصور التوضيحية التى لم يتردد الرسام فى نقلها فى كتاب كوزما متيحاً لنا بذلك فرصة فريدة فى التعرف على فن تنميق الكتب فى الإسكندرية فى فترة ان لم تسبق منتصف القرن السادس ، وقت تأليف الكتاب ، فهى بدون شك تسبق القرن التاسع أعنى وقت نسخ مخطوطنا (سيناء — يونانى — ١١٨٢) أضف إلى هذا أن هذه الصور تحتوى على عناصر عديدة يمكن ارجاعها إلى أصول لم تصلنا من العصر الهلينستى .

مراجع

إبراهيم نصحى تاريخ مصر فى عصر البطالمة الجزء الرابع سنة ١٩٦٦

عبد المحسن الحسينى شمال الحجازى ترجمة لكتاب أ . موسل الاسكندرية ١٩٥٢

نعوم شقير تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها . مصر ١٩٠٦

Morey, C.R. *Early Christian Art.* Princeton, 1953

Rice, D.T., *Byzantine Art,* Pelican Book. A. 287. 1954.

Runciman, *Byzantine Civilization,* 1959

C. Stormajele, *Miniatures della Topographia. Christiana di Cosma Indiepleste,* codice. Vatieane Grec 699. (Millan 1908).

Vasiliev, A.A; *History of the Byzantine Empire.* Modison. 1958.

Weitzmann, K., *Illustrations in Roll and codex.* 1947.
Greek Mythology in Byzantine Art, 1951.
Ancient Book Illumination, 1959.
Byzantinische Buchmalerie.

Smith, *Dictionary of Greek and Roman Biography & Mythology*

Migne, *Patrologia Graeca,* Lxxx111; (in Greek and Latin.)

J.W. McCrindle, *The christian Topogsaphy of Cosmas,* London. 1897.

Anastas, M.V, "The Alexandrian Origin of the *Christian Topography* of Cosmas Indicepleustes. ,,*Dombarton Oaks Papers.* 111. 1946.

Fol. 28 r.

شكل (١)

العرش البطلمى والسيادة الأثيوبية

Fol. 30 v.

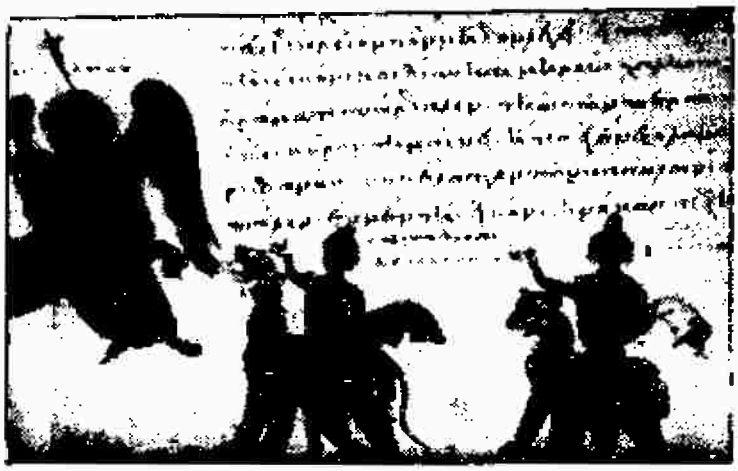

شكل (٢)
ملاك الرب واثنان من الملوك

Fol. 31 r

شكل (٣)
أثنان من الملوك

Fol. 33 v.

شكل (٤)

العالم

Fol. 34 r.

شكل (٥)

العالم

Fol. 69 r.

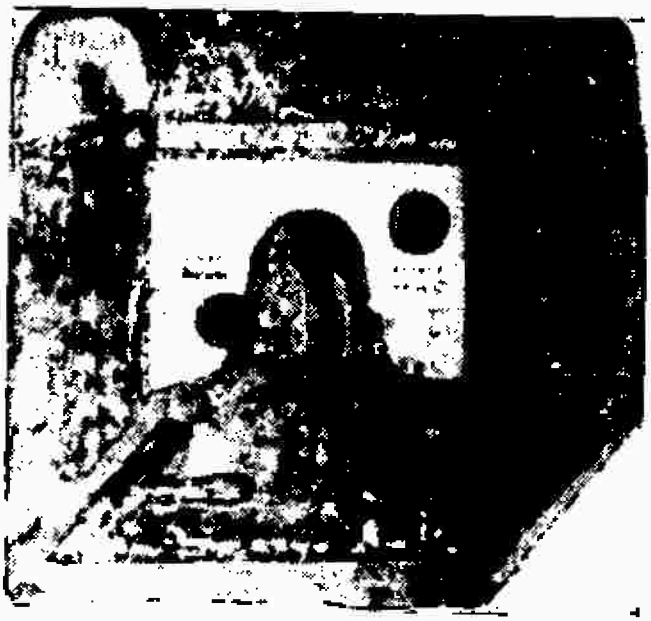

شكل (٦)
التكوين

Fol. 82 r.

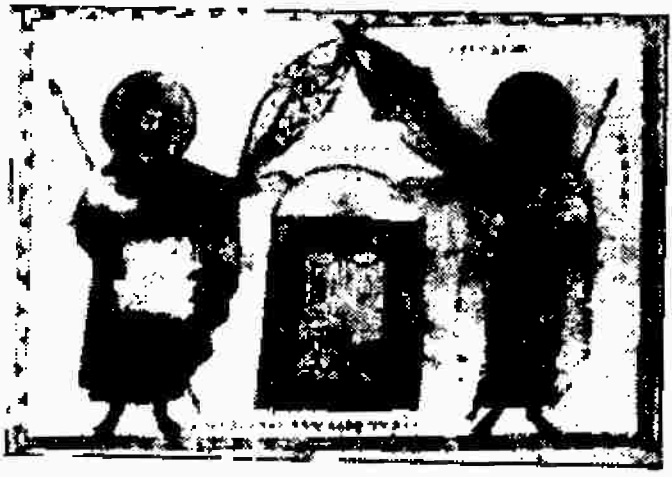

شكل (٧)

تابوت العهد

Fol. 77 v.

شكل (٨)

خيمة الاجتماع

Fol, 81 r.

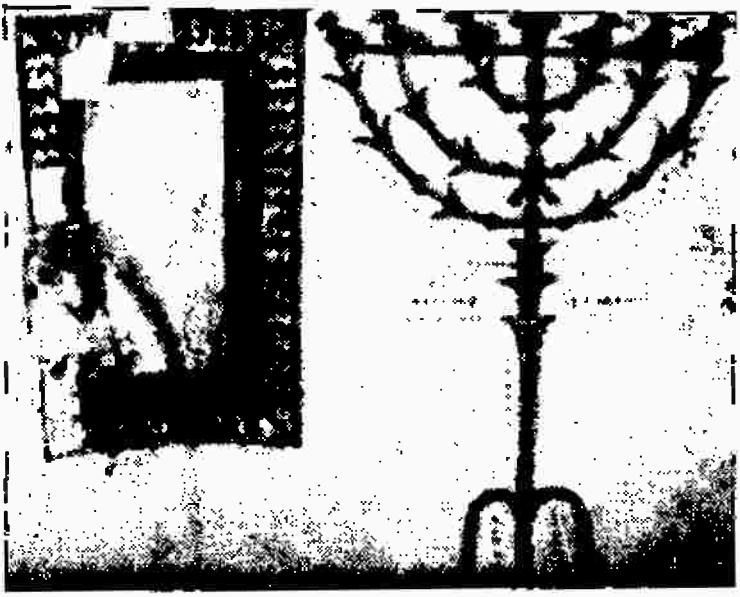

شكل (٩)

ارشادات بناء المائدة والشمعدان

Fol. 65 v.

شكل (١٠)

العالم

شكل (١١)
الحمامة تعود الى الفلك

Fol. 68 v.

شكل (١٢)
تخطيط الخايقة

Fol. 146 v.

شكل (١٤)
تشخيص الشمس

Fol. 140 r.

شكل (١٣)
تشخيص الشمس

Fol. 180 r.

شكل (١٥)

تخطيط للروح ، الفصول والاشكال الرمزية

Fol. 202 r.

شکل (۱۹)

عرس و صید وحوش

Fol. 204 r

شکل (۲۰)

اسد یتهم حصان

Fol. 202 v.

شكل (٢١)

شجرة العلفل وحيوانات بحرية

Fol. 203 r.

شكل (٢٢)

رجل ونخلة هندية

Fol. 59 v.

شكل (٢٣)
آدم وحواء فى الجنة مع الحية

Fol. 91 v.

شكل (٢٤)
هابيل وغنمه

Fol. 75 r.

شكل (٢٥)

موسى يتسلم القانون

Fol. 73 r.

شكل (٢٦)

معجزة السحابة نهاراً وعامود النار ليلا

Fol. 74 r.

شكل (٢٧)
معجزة السلوى

Fol 73 v.

شكل (٢٨)
معجزة المن

Fol. 75 v.

شكل (٢٩)
موسى يتسلم القانون

شكل (٣٠)
آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة

شكل (٣١)
أسحق

Fol 98 r.

شكل (٣٢)
ذبح أسحق

Fol. 126 v.

شكل (٣٣)
أعتاق بولص المسيحية

Fol. 107 v.

شكل (٣٥)

قصة يونان - (يونس)